بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

توطئة

ليس المقصود «بالشعر والشعراء» كتاب ابن قتيبة النقّاد القديم المعروف . انما هو كتاب جديد[1] ألفه نقّاد لبناني معاصر في الشعر والشعراء المعاصرين ، واصدره من زاوية عزلته في احد سجون المكسيك ، فنشرته على العالم العربي جريدة الهدى النيويوركية . ظهر الكتاب اولًا مقالات متتابعة احدثت شيئاً من الارتياح الممزوج بالاعجاب في قلوب البعض ، وشيئاً من الانقباض المختلط بالقلق في قلوب البعض الآخر ، اذ رأوا فيها جرأة لم يتعوّدوها ، ووجهةً في النظر لا هي بالقديمة التقليدية ولا هي بالجديدة الصرفة . فكان ان من اعتبروا الكتاب اولًا ملهاة ادبية لا بأس ان يلهو بتركيبها من ارغم على اعتزال الناس ، ولا بأس ان يطلع عليها من توقهم مظاهر الادب ، اعادوا النظر فيه مدققين فرأوا آراء وملاحظات قد يجدر بالاديب ان يتنبه لها ، ويتوقف عند بعضها . وكان ان توفي ثلاثة من الشعراء الذين يذكرهم الناقد دارساً شاعريتهم ، وهم محبوب الخوري الشرتوني (٢٧ حزيران ١٩٣١) وحافظ ابراهيم (٢١ تموز ١٩٣٢) واحمد شوقي (١٣ تشرين الاول

---

١) الشعر والشعراء: فصول انتقادية ادبية بقلم خليل ضاهر . نُشرت تباعاً في جريدة الهدى بتوقيع « ابن جنّي» – مطبعة الهدى اليومية في بروكلن ، نيويورك ، سنة ١٩٣١ ، ٢٠٠ صفحة متوسطة .

١٩٣٢). فاصبح من المفيد ان تُعرف احكام المؤلف فيهم، وهم احياء، فتُعرض الى جنب الاقوال الكثيرة المتباينة التي تتابعت، ولما تزل، على صفحات الجرائد والمجلات منذ وفاتهم، ولاسيما منذ وفاة الاخير منهم. وكان من احكام الظروف ان الكتاب لم ينتشر الانتشار الكافي في بلادنا الشرقية. فرأينا ان نعرض له فنجتهد في استخراج روح كاتبه، ووجهة نظره في الحكم على معاصريه من الشعراء، وذلك على طريقة موضوعية بحتة، محتفظين بحقّ تعليق بعض الملاحظات على الاحكام المختلفة.

يمثل المؤلف مذهباً في النقد نعتقد ان من المفيد تحديده والاطلاع عليه، لانه مذهب انتقالي قد يصبح من الصعب ان نرى كثيراً من ممثليه في المستقبل. هو مذهب انتقالي في الثقافة الادبية ولاسيما الشعرية منها: انتقالي باختياره الشعراء الذين كانت تدور اسماؤهم على الالسنة، لعشرين سنة خلت، في الاندية اللبنانية خصوصاً؛ انتقالي باعراضه عن غيرهم من المعاصرين الذين لم ينبغوا الّا بعد الحرب الكبرى؛ انتقالي بطريقة تذوّقه اولئك الشعراء وتحليل مواهبهم؛ انتقالي بنوعية حكمهم عليهم ناظراً خصوصاً الى ما يدعوه «بالصناعة الشعرية». وهكذا فاننا نرى الناقد يستند من اسلوب الاقدمين الى التحاليل البيانية على انواعها وما تجرّه من مآخذ يتعلق اكثرها بالصناعة المذكورة، ويستند من اسلوب المحدثين الى تعليل هذه المآخذ المتنوّعة والى شيء من تقدير معنوية الشعر المنقود. يضيف الى ذلك فطرةً نقدية لا بأس بها، وجرأة تروق كل من يطالعه مجرّداً عن الاهواء. الّا انه لا يصل من كل هذه العناصر النقدية الى اسلوب متماسك الاجزاء، واضح الرسوم، ذي وحدة ادبية ماثلة المظاهر. انما الكتاب اشبه بتعاليق متنوّعة من بيانية لفظاً ومعنًى، وعروضية، ولغوية، ونحوية، وتاريخية ايضاً على كثير من شعر المعاصرين، تعاليق مفيدة بافرادها، ولكنها، مجموعةً، لا تؤلف تلك الوحدة الضرورية التي اشرنا اليها. ولعلّ لوجود الكاتب بعيداً عن كل مرجع ادبي «حيث لا كتاب ثقة يُركن اليه او ديوان شعر يُستعان به»[1]،

١) الكتاب: ص: ١

ولكونه كتب فصوله دون سابق تصميم فلم يُقدّر ما سوف يتسع له الكلام حتى انه شعر ببعض النقص « فلم يجد بعدئذٍ من سبيل الى الزيادة على ما كان قد نُضّد ونُشر على صفحات « الهدى »[1]؛ لعلّ لكلّ هذا تأثيرًا في ما نراه من نقص تأليفي في كتابٍ دلّ على جهد بليغ واطلاع واسع اذ كان ثمرة «ما بلغت اليه الطاقة بين الفرار من السكينة واليسير من فتور اختلاجات النفس.»[2]

يتضمن الكتاب دروساً متنوّعة في عشرة من اشهر شعراء العصر المتداولة اسماؤهم منذ اكثر من عشرين سنة، متفرّقين في مصر ولبنان والعراق وديار المهجر، منهم من استراح من متاعب الدنيا، كما قدمنا، ولكنهم لم يخلصوا من متاعب النقد، ومنهم من لا يزال حاملًا نصيبه من هموم هذه الحياة وما تجره من مشقات حتى في محيط الادب. ولما لم يكن في الكتاب من تصميم مقرّر رأينا ان نقسم درسنا الى ثلاثة اقسام نعرض في اولها لآراء الناقد في شعراء مصر، وبهم يبدأ كتابه، ونفرد الثاني لشعراء الوطن، خاصين الثالث بكلمة نقولها عن شعراء المهجر.

١

شعراء مصر

شوقي — حافظ — المطران

يبدأ الاديب خليل ضاهر نقده بذكر شوقي فيخصّ به نحو ربع الكتاب، تاركاً الثلاثة الارباع للشعراء التسعة الباقين. تسيّره في كل ذلك عاطفة الاعجاب والاكبار. وهذا كله من ثمار تلك الثقافة الانتقالية التي كانت تفرض على اربابها الاعجاب بالشاعر المصري الكبير، وتقدر سائر الشعراء بالنسبة اليه. فشوقي، في نظر صاحب الكتاب، « الشاعر العظيم »، و« الشاعر الفذّ »، و« صاحب العقل الفوّار الذكاء »، و« الشعر المتقدمين والمتأخرين اذا نُظر في صفات شعره

---

١) الكتاب: ص: ز

٢) الكتاب: ص: ح

نظرة اجمالية » ، بـل هو « امير الشعراء وحامل لوائهم » ، يقول ذلك جاداً ويستشهد عليه بقول حافظ ابراهيم اذ « وقف في مهرجان شوقي وبايعه الامارة» على قول الجرائد ، فقال :

امير القوافي ، قد أتيتُ مبايعاً : وهذي وفود الشرق قد بايعت معي !

ويستشهد ايضاً بغير ذلك من الاقوال ، حتى يكاد يجعل من شوقي مثالاً اعلى للشعر في كل زمان ومكان . ومن المفكه في ذلك أنه ذكر ، في ما خصّ حافظ ابراهيم وخليل مطران ، حكم احد النابهين المتمصرين القائل : « لو استطعنا المجيء بشاعر واحد من حافظ ومطران — الاول ببيانيه والثاني بمعانيه — لاخرجنا الى العربية شاعراً نباهي به الغرب .» ذكر الناقد هذا الحكم فاقرّ « حقيقته الراهنة » ، ولكنه احتاط له بقوله : « لكن يجب علينا ان نستثني شوقي . ولعل الحسيب الاديب اراد القول انه لو وجد هذا الشاعر لنازع شوقي الامارة .» [1] (كذا !)

ويمضي الناقد في تعداد حسنات شوقي ، مشيراً الى انه كان « ككل شاعر في بداية معالجته النظم ينسج على منوال من تقدّمه من الشعراء المبرّزين متحدياً اقربهم الى ذوقه .» وانه كان ، في اوائل شعره ، «ينهج نهج ابي الطيّب . وليست قصيدته في الحرب التركية اللبنانية الّا قصاصة من شعر المتنبي .» ولكن لا تتقدم السنّ بشوقي حتى يصبح الشاعر الشخصي المبتكر فيظهر الفرق لمن «نظر في شعره القديم وشعره الحديث . ولا بدع فهي سنّة التطور والارتقاء . بالرغم من ان له وثبات في ذلك الوقت قلّما يترقى اليها اليوم .» [2] وهذه الملاحظة الاخيرة على قسط وافر من الصحة يتحقّقه كل من تابع شعر شوقي في سنواته الاخيرة . ثم يذكر من تلك الروائع الهمزية التي انشدها الشاعر في المؤتمر الشرقي الدولي ، و« خدعوها » « التي لم يصل اليها شاعر » ، والقافية في دمشق ، ومعارضة البُردة ، والناقد يفضل مطلعها على مطلع « البردة » ، والبائية التي يخاطب فيها النبي ، والنونية في زحلة ، ومراثيه في سعد زغلول ، واسماعيل صبري ، ومصطفى كامل ،

١) الكتاب : ص ٥١
٢) الكتاب : ص ٩

والمنفلوطي . والناقد يعجب — وحق له الاعجاب — بالميمية في رثاء ادرنه « اخت الاندلس .» فيبين حسناتها من دقة وصف ، وصدق تمثيل ، وبلاغة تعبير ، وجدة ديباجة ، ورنة موسيقى واستنهاض للهمم ، وتفنن بايراد الحكم ، كل ذلك في تنسيق محكم . حتى انك « لا تجد بين ما نظمه المتقدمون قصيدةً تناسبت ابياتها كهذه بحيث انك لو اردت الاشارة الى حسناتها لاضطررت الى ابرازها برمتها . وهي وان لم تكن احسن ما نظمه شوقي فانها من عيون الشعر الخالد من تليد وطارف .»[1] ويقابل بين هذه القصيدة والبائية في وصف مواقع الحرب التركية اليونانية:

بسيفك يعلو الحقُّ والحقُّ اغلبُ وينصر دين الله أيان تضربُ

فيرى سموّ الاولى وضعف هذه التي « لم يخرج فيها ، على بلاغتها وتفننه في الوصف ، عن طريقة من تقدمه من حيث التشابيه والاستعارات والغلو البياني .»[2] وقد كان بامكان الناقد ان يُلحق بهذه البائية بائية ثانية نظمها شوقي في انتصار مصطفى كمال على اليونان فسار فيها على اثر ابي تمام ، سيره في الاولى على اثر المتنبي ، كما يقول الناقد . واغرق فيها في التلاعب اللفظي حتى ادرك الجناس المضحك بقوله عن اليونان:

ما كان ماء سقاريا سوى سقرٍ طغت فاغرقت الاغريق في اللهبِ
لما انبرت نارها تبغيهم حطباً كانت قيادتهم حمالة الحطبِ

والغريب انه لا يزال بين ادباء مصر حتى اليوم من يزعم ان هذا من « الجديد الجيّد » ومن « الشعر الفاخر .»[3]

ولا يقف صاحب الكتاب عند هذا الحدّ في ذكر حسنات شوقي الا لانه « لم يستعن بغير الذاكرة .» وهو ينصح لطلاب الشعر والمتأدبين ان يرجعوا الى الديوان « ففيه من المعجزات ما لا نهاية له في الحسن فضلاً عن جلائل قلائده التي لم تُنشر بعد .»[4]

١) الكتاب : ص ١٤–١٥
٢) الكتاب : ص ١٣
٣) عباس الجمل : في جريدة « الكشاف » ، مصر ، بتاريخ ١٦ ايلول ١٩٢٧
٤) الكتاب : ص ٢٨

ولما كان النقد الصحيح الصريح، والكاتب يأخذ به اشدّ الاخذ، يقضي بذكر السيئات قضاءه بذكر الحسنات، دُفع الاديب الى مواجهة نقائص شاعره المفضّل. فوطأ لذلك بتوطئة لطيفة بدأها بالقول «ان لا عصمة الّا لله ... وان صناعة الشعر ولاسيما العربي اكثر الاعمال مشقة ... وان الرجل من تغلبت حسناته على سيئاته ...» الخ رامياً بذلك الى «نفي الريب عن شاعرية شوقي لدى قليلي الاطلاع الذين يؤخذون باقوال هذا وذاك.»[1] والدفاع عن شوقي من الغايات الاساسية في تأليف الكتاب، كما يستنتج من المقدمة.

ثم يأخذ على «امير الشعراء» بعض الهفوات النحوية واللغويـة والنقائص العروضية كسناد الردف «الكثير في شعره القديم.» على ان الناقـد يخفّف وطأة هذا الاخذ بقوله عن الشاعر: «ولعله يعرف ما لا نعرفه».[2] ومما يأخذ عليه فيصيب كل الاصابة تلك المناقضات المعنويـة والشطحات الفكرية التي تكثر في حِكَم شوقي، وبعض مقاطعه التاريخية، ومقابلاته عيسى بمحمد، والهلال بالصليب، والشيوخ بالحاخامين، وما اشبه من السقطات والاضاليل. على انه في كل ذلك ينقّب عن مخرج لشاعره «الفذّ.» ثم يلمّ بسرقات شوقي فيشير الى قسم صالح منها دون ان يذكر اللفظة تأدّباً. وهو يدلّ في جميع ما تقدّم على اطّلاع واسع الى اعجاب مخلص بالشاعر الكبير.

ويختم كلامه «بسلام الله على النبوغ والعبقرية»[3] بعد ان ينحي باللائمة على شارح ديوان شوقي لاقتصاره على تفسير المفردات دون ذكر الافادات التاريخية اللازمة لفهم بعض الابيات، وهو يشفق، بكل اخلاص، من ان يأتي في الاجيال المقبلة من لا يفهم هذين البيتين:

ام بالتكاتف حول الحقّ في بلدٍ ... من اربعين ينادي الويل والحربا
يا ربّ من مات في شرخ الشباب بها ... ومن قضى دونها جوعان مغتربا

---

١) الكتاب: ص ٢٩
٢) الكتاب: ص ٣١
٣) الكتاب: ص ٤٢

فيقول :

« وعنوان القصيدة مشروع ٢٨ فبراير – لا اثر فيه للسنة – ولا شرح لهذين البيتين البتة .

« فيجب اذن على من يقرأها بعد مئات السنين ان يكون نبيًّا ليدرك ان المقصود في البيت الاول سنوات الاحتلال ، وفي المصراع الاول من البيت الثاني مصطفى كامل ، وفي الشطر الثاني محمد فريد ورئيس الحزب الوطني من بعد الاول – والاخير منهما مات في المنفى . » (١

قلنا : ومن يقرأ هذين البيتين بعد عشرات السنين ؟ فضلًا عن المئات . . . فليطمئن اديبنا بالًا !

* * *

بعد ان يقوم الناقد بواجبه نحو « الامير » يلتفت فلا يرى « في لائحة الامة الناطقة بالعربية من مرشح للاريكة بعد «الامير »[٢] سوى حافظ ابراهيم وخليل مطران . فيذكرهما بعد شوقي مجموعين في عنوان واحد ، مخصصاً لهما عشر صفحات .

اما حافظ ابرهيم فهو « نسيج وحده في فخامة مبانيه وفصاحة الفاظه » له « في الاجتماعيات مواقف مشهورة » حتى ان جوائد مصر اطلقت عليه لقب « شاعر الاجتماع »[٣] « وكثيرًا ما يطرق ابواب السياسة والاجتماع معاً فيجيد ويطرب »[٤] بما خصه به الله من « براعة الاستهلال » . ثم يقسم الناقد الشعر الى قسمين : « قسم لتقرأه بنفسك ، والثاني لتسمعه يُلقى . وشعر حافظ من النوع الثاني ، وهو اشبه بموسيقى ذات خمسين بوقاً يرتج لها المكان بما فيه اثر كل ضربة . »[٤] حتى اذا طبعت القصيدة وتلاها المطالع منفردة يزول من نفسه ذاك الأثر . ويأخذ الناقد على حافظ بعض الهفوات التركيبية وبعض المناقضات المعنوية . ومن اللذيذ المفيد ان نلاحظ هنا انه كان قد اخذ كذلك على شوقي عددًا من هذه المناقضات المعنوية ، فكان حكمه على « امير الشعراء » ان

---

١) الكتاب : ص ٤٢–٤٣

٢) الكتاب : ص ٥١

٣) الكتاب : ص ٥٢

٤) الكتاب : ص ٥٥

ذلك « من الزلات المغتفرة اذ لكل مقام مقال.»[١] وكان حكمه على حافظ ان « الشعراء في كل وادٍ يهيمون.»[٢] ...

واما خليل المطران « فابعد الشعراء مرمىً ، واصحهم لغةً ، شديد الحرص على قوانينها ولو توهم البعض مروقه من انظمتها . ينحو نحو شعراء الافرنج في ايثار المعنى على المبنى محتفظاً بطريقة العرب في التعبير دون ما نظر الى الرنة — وهي في كنه ضميره كالقشور بجانب اللباب — ولا تقرأ له كلمة لا تنطوي على كبير معنى ، دقيق التصوّر ، سامي الخيال.»[٣]

هذا خير اجمال لشاعرية المطران. وقد استشهد عليه الاديب بذكر وقفات لشاعر القطرين « كان فيها القرين القمن بان يسمى ثالث القمرين » ، يريد انه يستحق الرتبة الثالثة ، بعد شوقي وحافظ. على ان وصفه الاعلى للمطران يؤهله لمنزلة اسمى مما يقصد الاديب. هذا وليس في الابيات التي استشهد بها ما يدلّ على انه اطّلع على النيرونيّة ، وكان من حقّه ان يسهب في وصفها ، لو وقف عليها.

وعلى كل فقد اعتذر المؤلف ، في المقدمة ، عن هذا التقصير بقوله انه « لم يكن في يده الّا القليل من منظومات حافظ والمطران ووديع عقل وبشاره الخوري.»[٤]

وسنعرض في العدد القادم لآراء الناقد في شعراء الوطن.

---

١) الكتاب : ص ٣٢
٢) الكتاب : ص ٥٣
٣) الكتاب : ص ٥٧
٤) الكتاب : ص ز